

نهلة الشهبال

اللمحة الطريفة الوحيدة في الكارثة الجارية هم الأمريكيان الذين يصرحون كالتالي: "الإرهابيين يحاولون إثارة فتنة بين العراقيين من أجل تفويض التقدم الحاصل" (بيان السفارة الأمريكية في بغداد). فعدا اللغة الخشبية لهذا الموقف (من هم الإرهابيين هؤلاء في هذه الواقعة تحديداً؟)، وعدا وقوعه خارج الصدد، (إذ ليس الأمر فتنة بين العراقيين هكذا على العموم)، فلنّه هو القول في نهاية الأمر أنهم هم – الأمريكيان وخطتهم السياسية – المستهدفون. هم وتقدمهم "الحاصل"! لكن التندر هنا من قلة الذوق، ووقوع هكذا نصوص في مجال التحليل السيمانتيكي يخص الدارسين.

يكاد العراق يفرغ من مسيحييه، وهم سكان البلاد الأصليين كما يفترض بالجميع أن يعرف... كما فلسطين، بلد يسوع الناصري، تفرغ رويداً من مسيحييها، وإن كان النزف الفلسطيني أبطأ ويجري بهدوء وبفعل عوامل متعددة.

يطرح الأمر قضية ملحة، تتجاوز المسيحيين إلى كل الأقليات، عرقية كانت أو دينية: لا يمكن بناء أي تصور عن المستقبل، المواطنة والدولة والإطار الإقليمي... إلى آخر العناوين التي تخص كل البرامج السياسية، بدون التصدي لمسألة الأقليات، والأساس الذي يضمن مساواتهم التامة، وكذلك الآليات. قد يشير البعض وعن حق، أننا اليوم لسنا بصدد بناء هكذا تصورات وبرامج، فنحن نبحث عن كيفية وقف الانهيار المتسارع: تفكك المجتمعات، والحروب الأهلية المتفجرة أو الكامنة، وضياح كل المراكز المألوفة، وفي كل الميادين. ولكن هناك ما يبرر الاعتقاد القوي أن مهمة وقف الانهيار غير قابلة للتحقق من دون بلورة وطرح ذلك التصور المستقبلي الشامل. أي أنها لا يمكن أن تنجح بواسطة رد الفعل على عملية التحلل الجارية، وتوسل تدابير مؤقتة أو داهمة. فالحالة الموصوفة هي من الكبر والعمق بحيث أن المطروح فعلياً هو مهمة تأسيسية، فكرياً وسياسياً. ولعل المباشرة بإعادة التأسيس وحدها تتمكن من التقاط نقطة بدء ما تسمح بالتماسك وسط المعمة الضاربة. ثم لا يمكن تصور حل تاريخي للمسألة الفلسطينية من دون ذلك. فخلا "رمي اليهود في البحر"، لا بد من الإقرار بأن تلك المسألة باتت فلسطينية/يهودية، وأن هزيمة إسرائيل لن تُنجز عسكرياً فحسب، بل لا مناص من بلورة اقتراح لكيفية استيعاب هؤلاء المهزومين (يوم يتحقق ذلك، ولكن من أجل تحقيق ذلك، وهو الأهم). وربما ينبغي الاكتفاء ها هنا بتسجيل ملامح "الجبيل" والعودة إلى الآني.

ولكن قبل ذلك، فلا بد من القول أيضاً أن هذا التطلب بتصوير شامل وحضاري يشمل بالطبع تلك الأقليات "المتفرعة" التي باتها الأكراد، مخافة أن يؤدي سلوكهم الحالي إلى توليد مشاعر عامة من الحقد عليهم بوصفهم أكراداً، كما هي في الوعي العام السائد استحالة الكلام اليوم عن اليهود العرب كشيء مختلف (أو يمكن أن يكون مختلفاً) عن إسرائيل والصهيونية. لماذا النعت القاسي؟ لأن ما يُعمل له كردياً، حتى في ظل

الظرف السياسي الملائم الذي نشأ بعد احتلال العراق، هو الوصول إلى أكبر هيمنة ممكنة على العراق، أي اضطهاد أقلية لأكثرية، وليس طموح دولة كردستان كلها – وهي حق، ولكنها تشمل أقسام من إيران وتركيا وسوريا علاوة على العراق، ودون ذلك كل شيء، ودونه أيضاً التناقضات الكردية بين تلك المكونات، وهي ليست بالقليلة.

والأكراد هم اليوم المتهمون الأول في عملية ترويع المسيحيين العراقيين، وآخر فصولها ما يجري في الموصل من قتل ونهب، أدى حتى اللحظة إلى مغادرة أكثر من ألف وخمسمائة عائلة لمنازلها، واللجوء إلى الأديرة تحت حماية الشرطة (يا للذل ويا للبخاعة)، والاستعداد للرحيل إلى بلدان الجوار كمحطة نحو المنفى الأمريكي البعيد. أما المتهم الآخر فالقاعدة، حيث اتخذ بعض ترويع المسيحيين في أحياء من بغداد – فرغت منهم هي الأخرى – طابع الدعوة إلى اعتناق الإسلام أو دفع الجزية! من المفرج أن هناك إجماع على إدانة الوقائع، يبدأ من لدى السيستاني الذي شجب واستنكر، وينتهي عند منظمة المؤتمر الإسلامي التي وصفها بـ"الجريمة غير المسبوقة".

يتبرأ الطرفان بقوة من التهمة، وهذه بداية ايجابية لأنها توشر إلى مبلغ فظاعتها. ولكن ثمة من يقتل ويروع! ويصادف أن ذلك يحدث على نطاق واسع في الموصل قبيل انطلاق انتخابات مجالس المحافظات، وهي في غاية الأهمية، لأنها بمثابة الحكومات المحلية. يقول المطران لويس ساكو، رئيس أساقفة الكلدان في كركوك، أن الترويع يحدث "لأهداف سياسية، ولإجبار المسيحيين على التحالف مع قوى بعينها" في تلك الانتخابات. ومعلوم أن ما فاقم المشكلة هو الصراع على قانون انتخابات المحافظات الذي ما زال عالقا للنقاش في البرلمان العراقي، حيث دفع الطرف الكردي باتجاه حذف المادة 50 المتعلقة بحق الأقليات في مقاعد مخصصة في مجالس المحافظات، بسبب خلاف حول الفقرات الخاصة بإجراء الانتخابات في محافظة كركوك. ومن المهم بالطبع ألا يلاقي المطران ساكو مصير سلفه، وهو كان شخصية مرموقة، مناهضة للاحتلال ولضم كركوك إلى كردستان. وقد قتل بوحشية.

تعلن الحكومة العراقية عن امتلاكها لمعلومات قيمة، وعن قدرتها على إعلان نتائج تحقيقاتها خلال أيام. لعله ينبغي البدء من هنا ليتمكن تهدة روع المسيحيين العراقيين ووقف تلك المأساة... ولنتمكن تلك الحكومة من تسجيل منجز ما لنفسها علاوة على منح ولو لحظة من صدقية للكلام الأمريكي، الأشبه بالاسطوانة المشروخة، عن التقدم الحاصل.

والاهم من هذا وذاك، المعالجة كي يتوقف بتر الأعضاء. فكل أقلية كائنة من كانت، تضطهد وتدفع إلى المغادرة، بالهجرة أو الانسلاخ، تمثل عملية بتر للجسم الواحد. ولا يمكن لجسم مبتور أن يستعيد عافيته دون ترميم البتر... ما قالته يوماً ابنتي الشابة وهي تبكي بحرقة بعدما شاهدت الفيلم الرائع "إنس بغداد"، الذي يحكي سيرة أربعة يهود عراقيين لا يحبون شيئاً كحبهم للعراق، ولا يناهضون شيئاً كمناهضتهم للصهيونية، وقد استمروا حتى شيخوختهم ليكون رحيلهم عن بلدهم ويحلمون بالعودة إليه. وهم كانوا قد غادروا العراق تحت وطأة حوادث ترويع ساهمت في وقوعها منظمات صهيونية بتواطؤ مع السلطات القائمة آنذاك. فكيف إذا كان البتر متواصلاً؟ ولا يخضع لظروف إشكالية دولية معقدة كتلك التي صاحبت إنشاء إسرائيل!